بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

تفسير سورة الأعراف (الحلقة19)

ميقات موسى عليه السلام وفتنة قومه من بعده

قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (148) وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (149) وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (150) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (151) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (152) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (153) وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (154)﴾ سورة الأعراف

عندما يغيب حادي الركب يتكاثر حُداتُه، وتتفرق كلمته وتضطرب خطواته، وعندما يغيب ناطور المزرعة تعيث فيها كلاب القرية وثعالب الغابة وجرذان المزابل وطفيلياتها، فتُفسد حرثها وتُبيد زرعها؛ هذا مَثَل كل جماعة بشرية انتظم أمرها على قيادة رشيدة قوية ومنهج قويم، تظل على خير من أمرها ما دامت القيادة حاضرة تضبط خطوها، وتكف جانحها وتهدي ضالها، فإن غابت هذه القيادة أو شغلها شاغل دب بين ضعاف النفوس فيها الوهن وتسربت إلى صفها الفتن، وسادها الضعفاء والوضعاء، واستأسد فيها كل لئيم؛ ذلك حال مسيرة بني إسرائيل إذ تجاوزوا البحر ونجوا من فرعون، ثم لما غاب عنهم موسى عليه السلام لمناجاة ربه وتلقي وصاياه وتعاليمه مستخلفا فيهم أخاه هارون فاستضعفوه، واستأثر بقيادتهم السامري[1] وشيعته ففتنوهم عن التوحيد واستدرجوهم إلى الشرك وعبادة عجل الذهب كما ورد مفصلا في سورة طه من قوله عز وجل: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا

[1] – رجل منهم ينسب إلى السامرة، وهي جبال نابلس الواقعة في القسم الشمالي من الضفة الغربية.

إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ طه 88، إلى قوله عز وجل: ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ طه 91، وأخبر الله بذلك موسى عليه السلام وهو على جبل الطور بقوله عز وجل:﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ طه 85، أي اختبرناهم أثناء غيابك عنهم بما استدرجهم إليه السامري من عبادة العجل، كما تستدرج إليه أي جماعة بشرية استُضعِف فيها العقلاء واستُذِل فيها الحكماء واستفرد بها الشيطان وانبث فيها أولياؤه من عبدة المال والمنصب والجاه، مما فصله عز وجل في سورة الأعراف بعد أن أوجز رسالته إلى موسى عليه السلام بأدق عبارة جامعة وقال سبحانه: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ...﴾ الأعراف 145، ثم عقب بذكر نموذج من مسيرة بني إسرائيل ومدى ثباتهم على ما بلغهم من العقيدة، ووفائهم لما أُخِذ عليهم من العهود وطاعتهم لما أُمِروا به فقال تعالى:

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ﴾ الأعراف 148، والحُلِيُّ جمعٌ مفرده حَلْيٌ، وهو كل ما تتزين به النساء من المصوغات ذهبا وفضة وحجارة كريمة، قرأها حمزة والكسائي بكسر الحاء وتشديد الياء﴿حِلِيِّهِم﴾ الأعراف 148، مثل "دِلِيّ"، جمع دلو، وقرأها الباقون بضم الحاء ﴿حُلِيِّهِمْ﴾ الأعراف 148، مثل "ثُدِيّ"، جمع ثَدْي، والعجل لغة هو ولد البقرة سواء كانت من الجواميس أو من العِرابِ – الأهلية – ،كالحُوار لولد الناقة والمُهر لولد الفرس، والجدي لولد المعزى، والخروف للشاة، أُطلِق مجازا على التمثال المعدني الأجوف الذي صنعه السامري على شكل عجل، والجسد لغة هو البدن، وصف مجازي للتمثال تأكيدا لصفته المادية الملموسة القابلة للتضليل، أي اتخذ قوم موسى عليه السلام أثناء غيابه لمناجاة ربه من حلي جلبوها معهم من مصر وصاغ لهم السامري منها تمثالا على شكل عجل أجوف مفتوح من جهتيه، يصدر عنه صوت يشبه خوار البقر كلما تسربت إليه الرياح، كما هو شأن مزمار القصب أو الناي الذي يُنْفَخُ فيه فتنبعث منه الأصوات، ثم زعموا لأنفسهم أن هذا التمثال إلههم الذي ذهب موسى عليه السلام لميقاته ومناجاته ﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ طه 88، وانكشف بذلك ما جبل عليه بنو إسرائيل في تاريخهم الطويل من اضطراب

نفسي وتردد وعدم استقرار على رأي، وقابلية للانتكاس عن أي معتقد أو موقف، واستعداد لخيانة أي عهد قطعوه على أنفسهم أو اضطروا له، ومن قبل ضاقوا بنبيهم موسى عليه السلام إذ قال لهم في مصر:﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الأعراف 128، فما كان منهم إلا أن: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ الأعراف 129، ثم لما أنجاهم الله إلى سيناء ورأوا قوما يعكفون على أصنام لهم ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ الأعراف 138 فصدهم موسى عليه السلام ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ الأعراف 138، ثم وقد خلوا إلى أنفسهم عقب غياب نبيهم لميقات ربه ظهرت فيهم هذه الضلالات المُخَزَّنة في نفوسهم وانبهروا بتمثال العجل الذي صنعه لهم السامري فاتخذوه إلها ومعبودا، وكذبوا بادعائهم هذا على الله وعلى نبيهم وعلى أنفسهم، وتجلى بذلك تأثير ما عاشوه من ذل الخدمة والاستعباد والخضوع القسري للفراعنة، وما مردوا عليه ورسخ في قلوبهم من إعجاب بفخامة الطقوس الاحتفالية الفرعونية في مصر، ومظاهر العبادات الوثنية التي سخروا لخدمتها زمنا طويلا، وما جبلوا عليه من الملق المخزي وسوء الظن والجبن والضعف والخور والخوف الدائم من المجهول، وما ران على قلوبهم من قسوةٍ ورَّثَتْهُم الحقدَ على غيرهم والتماسَ أشد الوسائل التواء وتحايلا ومكرا، وإحباطٍ أفسد فطرتهم وعميت به أبصارهم وصُمت آذانهم وغابت عقولهم وأضاعوا سبل الحق، فلم يعد لديهم فرق بين عبادة الله وبين عبادة العجل، وبين السجود لله والسجود للأوثان الحجرية أو البشرية[2].

لذلك عقب عز وجل على حالهم هذا مستنكرا غياب عقولهم فقال:﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ الأعراف 148، ألم ينتبهوا إلى أن تمثال العجل لا حياة فيه يكلمهم بها، ولا عقل له يهديهم به إلى صواب، ولا قدرة له على إصدارِ أمر أو نهي أو بيانٍ لمنهج أو تصورٍ أو عبادة.

---

[2] – كان قدماء المصريين يعبدون العجل لما رأوه فيه من مظاهر القوة والشدة والقدرة على حراثة الأرض، كما كان غيرهم في الهند يعبدون البقرة لما تعطيهم إياه من اللبن ولما يرونه فيها من عاطفة الحنو والأمومة، وآخرون يعبدون الشمس لنورها الساطع وحرارتها المفرطة وشدة حاجتهم إليها.

ثم بين عز وجل حكمه على انحرافهم هذا بقوله تعالى:﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ الأعراف 148، اتخذوا العجل إلها إذ أعطوه حق العبادة فظلموا الله إذ عبدوا غيره، وظلموا نبيهم إذ عصوا أمره واتبعوا غير سبيله وظلموا أنفسهم وأوردوها موارد الهلاك في الدنيا والآخرة إذ وقعوا في الشرك وهو أعظم الذنب كما قال تعالى:﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لقمان 13.

كل ذلك وهارون عليه السلام مع قلة مستضعفة من عقلاء المؤمنين، لا يملكون قدرة على مواجهة السامري والأكثرية المرتدة من أتباعه، حتى إذا هدأت النفوس، وخمدت حدة التحدي بين الطرفين أخذت الحقيقة تتجلى لمن ضل، والباطل ينكشف لمن لُبس عليه، والندم يحل في القلوب كما قال عنهم الحق تعالى:

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ الأعراف 149، والتعبير بقوله تعالى: ﴿سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ الأعراف 149، يقال في العربية لكل من ندم على فعل شيء أو عجز عنه، أصله من أن يضرب الرجلُ الرجلَ فيُطيح به في الأرض ويسقط في يده ليأسَره أو يقيّده، قَالَ الْفراء: "تقول العرب: سُقط فلان فِي يَده إِذا بَقِي نَادِما متحيرا على مَا فَاتَه، كَأَنَّهُ حصل النَّدَم فِي يَده، أو سقط في قلبه"، أي لما أنجزوا ما زينه لهم الهوى وقام العجل بينهم فأحاطوا به ركعا وسجدا، انكشفت لهم تفاهة عقولهم واتضح لهم سوء تصرفهم وحقيقة ضلالهم وعرفوا ما سقطوا فيه من الشرك وما فرطوا فيه من العقيدة وتأكدوا أنهم قد ارتدوا عن دينهم، فندموا على ما فعلوا، وحاروا فلم يهتدوا لمخرج مما هم فيه أو سبيل نجاة مما يستحقونه من العقاب وأقبلوا على بعضهم متلاومين ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الأعراف 149، أي قال بعضهم لبعض إن لم ينقذنا الله ربنا برحمته من ضلالنا هذا ولم يغفر لنا ما وقعنا فيه من الشرك لَنَكونَنَّ ممن خسروا الدنيا والآخرة.

وفي هذه الآية إشارة إلى أمرين: أولهما أن نفوسهم في تلك المرحلة من حياتهم الإيمانية كانت على رغم ضلالهم تحتفظ ببقية من قابلية الانصلاح، ولم تصل إلى ما صاروا عليه فيما بعد، في مرحلة قال الله تعالى عنهم فيها:﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾ البقرة 74.

والأمر الثاني في قولهم:﴿ لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الأعراف 149، وهو معرفتهم أن العمل وحده لا يكفي لدخول الجنة والنجاة من النار إلا برحمة من الله وفضل كما في حديث مسلم عن جابر أنه صلى الله عليه وسلم قال: (لَا يُدْخِلُ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ وَلَا يُجِيرُهُ مِنَ النَّارِ، وَلَا أَنَا إِلَّا بِرَحْمَةٍ مِنَ الله) وفي حديث البخاري عن أم المؤمنين عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، فَإِنَّهُ لا يُدْخِلُ أَحَدًا الجَنَّةَ عَمَلُهُ) قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: (وَلا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِمَغْفِرَةٍ وَرَحْمَةٍ).

والقراءة في هذه الآية بياء الغيبة ﴿لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ الأعراف 149، هي ما عليه السبعة، والرفع في: ﴿رَبُّنَا﴾ الأعراف 149، على الفاعلية، أما القراءة بالتاء وصيغة الخطاب: ﴿لئن لَمْ تَرْحَمْنا ربَّنا ...﴾ الأعراف 149، فهي ما عليه باقي الرواة، والنصب في: ﴿رَبَّنَا﴾ الأعراف 149، على أنه منادى، أي يا ربنا.

وفي غمرة ندمهم هذا وحيرتهم تلك يعود إليهم موسى عليه السلام وهو في أشد حالات الانفعال لِما أخبره الله به من فتنتهم بعده إذ ﴿قَالَ﴾ الله تعالى له وهو على جبل الطور: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾ طه 85.

ويواصل الوحي الكريم الحديث عن عودة موسى عليه السلام بقوله عز وجل:

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ الأعراف 150، ولفظ "غضبان" صفة مشبهة من "غضب يغضب"، مؤنثه غضبى، حال منصوب ممنوع من الصرف للوصفية وزيادة الألف والنون، والغضب هو السخط الشديد، والأسف هو الحزن لفوات شيء أو ضياعه أو وقوعه، والوصفان متقاربان لأن الغضب من الحزن والحزن من الغضب كما قال الواحدي، وهو حال موسى عليه السلام إذ رجع إلى قومه في أشد حالات الغضب والسخط والحزن لِمَا أوقع فيه السامري القوم من عبادة العجل، فخاطبهم منكرا عليهم ما فعلوا ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾ الأعراف 150، أي: ساء ما فعلتموه من بعدي في دينكم إذ عبدتم العجل وكفرتم، وفي خليفتي عليكم إذ عصيتموه ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ

رَبِّكُمْ﴾ الأعراف 150، والهمزة في فعل: "أعجلتم" استفهام إنكاري لما فعله بنو إسرائيل في غياب موسى عليه السلام، يقال: عجلت الأمرَ، وعجلت عن الأمر، إذا تركته غير تام، وأعجلك غيرك عنه واستعجلك إذا استحثَّك، من العجلة وهي التقدُّم بالشَّيءِ قبل أوانه، أما أمر الله الذي لم يصبر له بنو إسرائيل واستبطؤوه فاستعجلوا البث فيه بجهل وضلالة فهو عودة موسى عليه السلام من ميقاته مع ربه وتقديرهم أنه قد مات إذ لم يرجع إليهم على رأس الليلة الثلاثين وكان الميقات أربعين ليلة كما في قوله تعالى:﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ الأعراف 142، وقوله عز وجل:﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي * قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ طه 86 – 87، قال ابن عباس (أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ يَعْنِي مِيعَادَ رَبِّكُمْ فَلَمْ تَصْبِرُوا لَهُ؟) وَقَالَ الْحَسَنُ: (وَعْدُ رَبِّكُمُ الَّذِي وَعَدَكُمْ مِنَ الْأَرْبَعِينَ وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ قَدَّرُوا أَنَّهُ لَمَّا لَمْ يَأْتِ عَلَى رَأْسِ الثَّلَاثِينَ لَيْلَةً فَقَدْ مَاتَ).

لقد كان بنو إسرائيل في أغلب عهودهم يعبدون الله على حرف، وهم أسرع إلى الفتن والانقلاب على الأعقاب من غيرهم، كما قال تعالى في أمثالهم على مر العصور:﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ الحج 11، لذلك لم يسمعوا لهارون واستعلَوْا عليه وهو ينصحهم ويحاول ثنيهم عن عبادة العجل عقب ظنهم أن موسى عليه السلام قد مات، خلافا لما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ التحق بالرفيق الأعلى فقال لهم أبو بكر رضي الله عنه: (من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت﴾، ومن قبل خاطب الحق سبحانه كافة المسلمين إعدادا لمثل هذه المواقف بقوله:﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ آل عمران 144،

لذلك استبد الغضب بموسى عليه السلام وواصل توبيخهم بما فصلته سورة طه إذ قال لهم: ﴿يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ طه 86 – 87، ثم توجه إلى أخيه هارون يعاتبه على ما ظنه تقصيرا منه في رعاية بني إسرائيل ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ ألقى ألواح التوراة جانبا كي يتفرغ لمساءلة قومه ومعاتبة أخيه هارون ثم أمسك برأس أخيه يجره إليه غضبا منه ومَوْجِدة عليه لمواصلته الإقامة مع بني إسرائيل وعدم التحاقه به بعد ضلالهم، قائلا له كما ورد في سورة طه ﴿يَاهَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ طه 93/92، فأجابه هارون عليه السلام بما ينبغي أن يكون عليه رد الأخ الصغير على الأخ الكبير من أدب وتودد وحسن اعتذار: ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ...﴾ الأعراف 150، والآية قرأها ابن عامر وحمزة والكسائي وأبوبكر عن عاصم في سورة الأعراف وسورة طه بكسر الميم على حذف ياء المتكلم في لفظ "أمي": ﴿ابْنَ أُمِّ﴾ وبقاء الكسرة الدالة عليها، كقوله تعالى:﴿يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ الزمر 16، وقرأها أهل الحجاز والبصرة وحفص بفتح الميم للتخفيف بمعنى "أمَّاه"، وجعل غيرُهم "ابْنَ أُمَّ" كلمة واحدا مبنية على الفتح، أو تركيبا مزجيا مثل "بَعْلَبَك" و"حضرَ موتَ"، أو تركيبا عدديا مثل "خمسةَ عشرَ"، والمعنى واحد هو: "يا أخي وابن أمي[3] لا تعجل بمؤاخذتي وتعنيفي ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ الأعراف 150 [4]، أي: فإن عَبَدَةَ العجل ممن خلفتني فيهم لم يسمعوا نصحي واستضعفوني ولم يرْعَوْا لي حرمة وكادوا يقتلونني، فلا تُنِلْهم بإهانتي وتعنيفي ما يُشمِتهم بي ﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ الأعراف 150، ولا تحشرني في حكم واحد

---

[3]– النسب عند اليهود للأم هو أصرح النسب وأقواه، لما لاقَوْه في تاريخهم الطويل من اضطهاد ومطاردة وقتل وسبي، وليس لهم في كتابهم من حجة على ذلك، أما في الإسلام فالنسب للأب هو الأصلي وهو الشرعي وهو أقوى الأنساب وأتقاها، قال تعالى:﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ الأحزاب 5.

[4] – وفي سورة طه وردت تتمة جواب هارون في قوله تعالى:﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ طه 94،

مع هؤلاء الظالمين العصاة، فقد نصحت لهم وتمردوا علي ولم أستطع ردهم عن ضلالهم، فهدأت حدَّة غضب موسى عليه السلام من أخيه وعرف عذره ثم توجه إلى ربه يلتمس المغفرة لنفسه مما فعله بأخيه، ولأخيه مما قد يكون صدر عنه من تقصير ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي﴾ الأعراف 151، اغفر لنا تقصيرنا ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ الأعراف 151، وارحمنا ضمن من رحمتهم من خلقك ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فإنك أرحم من كل ذي رحمة، كما قال تعالى:﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ الأعراف 156 وعن أبي هريرة قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولُ: (جعلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جزءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ، وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا واحدا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ يتراحمُ الخلقُ، حَتَّى ترفعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا؛ خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَه).

ويعقب الوحي الكريم على هذا المشهد من حال الأخوين النبيَّيْن موسى وهارون تغاضبا وتراضيا ولجوءا إلى الله توبة واسترحاما بحكم صارم على كل من أشرك في دينه غير الله فقال عز وجل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ﴾ الأعراف 152، اتخذوه معبودا لهم من دون الله أو معه، سواء كان هذا المعبود تمثال عجل كما لدى السامري وأتباعه، أو كان بقرة كما لدى الهندوس، أو كان ظاهرة طبيعية كالشمس والقمر والنجوم، أو كان هوى نفس مالا أو سلطانا أو جاها أو منصبا ﴿سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ الأعراف 152، سيصيبهم غضب الله ما لم يتوبوا ﴿وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الأعراف 152، وخزي مقيم في الحياة الدنيا، وهو ما قرره الله في بني إسرائيل بقوله عز وجل:﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ البقرة 61، كما قرره تعالى جزاء وفاقا لكل من ناله غضبه ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ الأعراف 152، بمثل هذه العقوبات نجزي الذين يفترون على الله الكذب في كل قوم وفي كل عصر وفي كل مصر، الذين يبيحون ما حرم الله ويحرمون ما أباح، ويختلقون الشرائع والقوانين والنظم المعارضة لما وضعه لعباده وما شرعه لحياة خلقه؛ ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا﴾ الأعراف 153، أما الذين ارتكبوا ما يسوء من كبائر الذنوب والمعاصي ثم تابوا وكفوا عن ارتكابها ﴿وَآمَنُوا﴾ الأعراف 153، وعززوا توبتهم بالإيمان الصادق بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الأعراف 153، فإن الله من بعد تلك السيئات المرتكبة غفور لها رحيم بمرتكبيها.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ الأعراف 154، أي: ثم لما هدأت سورة غضب موسى عليه السلام من أخيه وقومه ﴿أَخَذَ الْأَلْوَاحَ﴾ الأعراف 154، أخذ من جديد ألواح التوراة كي يتفرغ لمدارستها وتبليغها ﴿وَفِي نُسْخَتِهَا﴾ الأعراف 154، والحال أن فيها ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ الأعراف 154، تعاليم هداية لمن اتبعها وتشريعات رحمة لمن يخافون ربهم ويرهبونه ويطيعونه، كما في قوله تعالى:﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ المائدة 44.

إن مسيرة موسى عليه السلام في سياسته بني إسرائيل مدرسة جديرة بالتأمل والاستيعاب، وإن تجربة التذبذب بين الثبات على الحق أو الانقلاب عليه عقب غياب القيادة الرشيدة بموت أو حياة أبرز ما نستخلصه من علاقته مع قومه إذ قادهم وابتُلِي بما جبلوا عليه من وهن في أخذ الكتاب وجبن في تحمل أعبائه، وإيثار للمداني على المعالي، وابتُلي بنو إسرائيل بصرامة قيادته واستقامة منهجه وجدية معاملاته، وهو الأسلوب الناجع دينا وحكمة وخبرة في معالجة هذه الظواهر المنحرفة كلما ذر قرنها في أمة ذات منهج رشيد أو جماعة ذات توجه عقدي دعوي، إذ تتولاها الحكمة الإلهية بناجع المعاملة التي تناسبها، تسديدا لطيفا أو تأديبا حازما أو عقوبة زاجرة أو محقا وتصفية، ومن يراجع سير الأنبياء مع أقوامهم يجد نماذج لذلك بينة لا تخطئها العين ولا تعمى عنها البصائر، يجدها في مسيرة بني إسرائيل منذ أول عهد لهم بالإسلام، مرورا بمراحل الضعف والقوة والشتات والسبي والذلة، ووصولا إلى ما هم عليه حاليا في فلسطين، كما يجدها في مسيرة المسلمين وهم مصطفون في غزوة أحد إذ أجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم رجالا بإزاء الرماة، وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير، وقال لهم:(لا تبرحوا مكانكم، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تُعينونا). فلما التقى القوم، وقاد رسول الله صلى الله عليه وسلم المعركة وهُزم المشركون جعل الرماة يقولون:"الغنيمة، الغنيمة"! فقال لهم أميرهم عبد الله بن جبير: (مهلا، أما علمتم ما عهدَ إليكم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟) فأبوا وانطلقوا للغنائم، فلما رأى خالد بن الوليد – وهو يومئذ قائد جيش المشركين – قلة الرماة وانكبابهم على انتهاب الغنائم صاح في خيله وحمل عليهم فأصيب منهم سبعون قتيلا، وكانت هزيمة المسلمين التي عالجتها الحكمة الإلهية باستئصال أسبابها من نفوسهم، تربية لهم ورحمة بهم إذ خاطبهم الحق تعالى بقوله: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ آل عمران 152، ثم ذكرهم بفضله السابق عليهم معاتبا بقوله عز وجل:﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ آل عمران 165. نفس الظاهرة ذَرَّ قرنها عقب وفاة رسول الله صلى الله

عليه وسلم إذ ارتد من العرب من ارتد وادعى النبوة من ادعى، بل واستوعبت الفتنة قبائل كلها أو بعضها وأصبح المسلمون الثابتون على دينهم كالغنم في الليلة الماطرة النَّطوف[5] لقِلَّتهم وكثرة عدوهم وإظلام الجو بفقد نبيهم، لولا أن قيض الله لهم عصبة حازمة ثابتة أمسكت زمام القيادة وسارت بالسفينة في اتجاهها الذي رسمه لها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كذلك مسيرة كثير من الحركات الإسلامية المعاصرة – والقياس مع الفارق – أصابتها انتكاسات عقدية وفكرية وتنظيمية عقب غياب مؤسسيها الأولين فلم تستطع إقامة ما رسمته من الأهداف لعدم استيعاب ورثتهم للمشروع الذي قامت به وعليه وله، وافتقارهم إلى تبين الأهداف العقدية والاستراتيجية والعملية التي رُسمت لها أول أمرها، وضبطت سيرها ووجهت بوصلتها من أول نشأتها، ولعجزهم عن تمثل رأس الزاوية في مسار انتشارها وتدبير أمرها، عدا التباين المحتمل بين المؤسسين وبعض الورثة في الثقافة والخبرة والتكوين النفسي والأهداف، مما يفتح ثغرات يصعب ترميمها ويثير فتنا يتعذر أحيانا تلافيها.

---

5 – الليلة النَّطوف: الماطرة حتى الصباح